السيكولوجية الحديثة

التحليل النفساني

ليعقوب قام

فرويد

قلنا في مقالنا السابق ان فرويد قسم النفس الى ثلاثة اقسام وأسماها (Id, Ego and Soprr Ego) وبلغتنا : الشخصية والنفس العليا والشهوة ، او الضمير والعقل والنفس باللغة القديمة ، او نستطيع ان نستعمل مؤقتاً الاصطلاحات التي كانت تستعملها السيكولوجية من خمسين سنة وهي العقل والشعور والارادة — هذه الثلاثة هي الاركان التي تقوم عليها النفس الانسانية

ثم قلنا ان مدرسة التحليل النفساني تزعم ان الامراض العصبية تنشأ في الاصل من ان الشهوة تلحف على الشخصية بالمطالب التي لا تستطيع هذه ان تؤديها فتتولد عن هذا العجز ازمة نفسية حادة او خفيفة ، وهذه الازمة هي المرض بذاته ؛ هي محاربة اجزاء النفس بعضها لبعض ، وقيامها بعضها على البعض الآخر ، اما ان الازمة تنشأ من خلاف بين الشخصية والشهوة ، او تنشأ بينها وبين المثل الاعلى للانسان

هذا ما يذهب اليه فرويد ، وهذا ما بيناه بالتفصيل في المقال السابق ، ولكننا نعود الآن فنقول انهُ في الواقع ليس هنالك ما يسوّغ وجود هذه العقدة في النفس على الاطلاق حتى ولو قبلنا هذا التقسيم على علاته من غير بحث او مناقشة . لنذهب مع فرويد الى آخر الشوط ، ولننسَ كل الشكوك التي تساورنا في صحة هذا التقسيم ، ومع كل هذا فاننا نستطيعين ان نرى بشكل من الاشكال كيف تقوم هذه الصعوبة اصلاً ، او كيف تخلق العقدة ، وكيف توجد الامراض العصبية في الانسان ؛ ولكي نوضح وجهة نظرنا في هذه المسألة نضرب لذلك مثلاً ، ولزيادة التبسط في الموضوع دعنا نحصر النزاع بين الشهوة والشخصية

تريد الشهوة امراً من الامور ، وتركز كل نشاطها وقواها في هذا الامر ، ولنفرض انها تلحف في طلبها هذا وتصر عليهِ ، وتصر ايضاً على ان لا تناهض ، وتظل تذكر الشخصية في كل حين ان لها قبلها مطلباً لم يتحقق بعد ، وانها لن تستريح او تريح الآ اذا اجابتها الشخصية الى مطلبها وقضت لها حاجتها ، ثم لنفرض ان الشخصية ترى ان تحقيق هذا المطلب عسيرٌ او مستحيلٌ ، ترى ان الحالة الاجتماعية او القوانين الوضعية لا تسمح بهذا ؛ ويجب ان نذكر القارىء عند هذه النقطة ان

الشخصية او (Ego) هي التي تعمل فيما بين العالم الداخلي والعالم الخارجي ، او هي الصلة بين النفس الداخلية وبين الدنيا حواليها ، فهي بطبيعة وظيفتها اقدر من جميع قوى النفس على تفهم ما يستطيعهُ الانسان وما لا يستطيعهُ ، ما يمكن تحقيقهُ في الواقع وما لا يمكن تحقيقهُ ، ذلك لان احدى الناحيتين الاخريين عمياء والاخرى خيالية ، وأما هذه فواقعية محضة (Realistic)

فرضنا ان هذا ما قد وقع بين الشهوة والعقل (آسف جدًّا للغلط في اسماء هذه النواحي لاني لا اعرف لها اوضاعاً صحيحة في اللغة العربية) . فرضنا ان هذه تطلب امراً وذاك يعجز عن تحقيقهِ ، وفرضنا ان هذه تظل متمسكة بمطلبها وذاك متردياً في عجزه ، وبعد هذا ماذا يكون ؟ وماذا يحدث ؟ هل تحدث ازمة نفسية تؤدي الى المرض

اما ان ازمة نفسية تحدث فنعم ، واما ان هذه الازمة تؤدي الى المرض فلا ، ذلك لان الازمات تحدث كل يوم وكل ساعة ، فلست اظن ان انساناً عاش من غير تلك الازمات في لحظة من اللحظات ويستطيع كل انسان ان يذكر منها الشيء الكثير من طفولته الى وقتهِ الحاضر ، وما على من ينكر هذه الحقيقة الاَّ ان يراقب اطفاله بضع دقائق ، وانا واثق انهُ سوف تمر عليهِ بعض ازمات نفسية عند هؤلاءِ الاطفال ، وان هذه الازمات ستمضي الى حال سبيلها من غير ان تترك اثراً في نفسيتهم ، او يستطيع ان يراقب نفسهُ في يوم بذاته ليرى كيف ان نفسه تتوق في كثير من الاحيان الى اشياء بذاتها وانها تشعر ان سعادتها لا تتحقق الاَّ بتحقيق هذه الرغبات ، ثم ان نفسه تطلب الى قواهُ الواعية ان تعمل على تحقيق هذه الرغبات ، والايام تمر والرغبات لا تحقق ، والنفس غير راضية ، والعقل منهمك في شؤونهِ العادية من غير التفات الى هذه المطالب ، ومع كل هذا فلا يقع الانسان فريسة لامراض عصبية او غير عصبية

كم من الامور كنت اريدها ؟ وكم من الامور كنت اظن اني لا استطيع العيش من دونها ؟ وكم من الرغبات عندي الآن ؟ وكم يشق عقلي وبدني في العمل على تحقيقها ؟ ومع هذا كله فلا زلت سليماً معافىً ولا زلت اقوم بعملي واؤدي واجبي وانشط في كل ما تنشط فيهِ بيئتي التي اعيش فيها ، واظنني خالياً من العوارض الفرويدية بقدر ما اظن ان معظم اصدقائي خالين منها

لست متجنياً على فرويد ، ولست ظالماً لهُ ؛ لانهُ هو نفسهُ شعر فيما يظهر بأن المشكلة التي اضطلع بحلها لم تحل بعد ، كما اشعر انا الآن ، والفرق بيننا اني تشككت في صحة ما ذهب اليهِ بعض الشيء ، أما هو فقد لجأ الى حيلتهِ القديمة — تلك الحيلة التي كان يلجأ اليها علماء الطبيعة في القرن التاسع عشر في مسألة الاثير ، لقد فرضوه فرضاً ، ثم فرضوا لهُ الخصائص التي كان يجب ان تكون لهُ فيما لو كان موجوداً حقًّا ، وكلما اعوزتهم الحيل فرضوا لهُ خاصية اخرى مناقضة تمام المناقضة لسابقاتها الى أن اصبح وجوده مستحيلاً في الواقع

هكذا يفعل فرويد ، وجد ان تقسيم النفس الى هذه الاقسام لا يكفي في ذاته لتفسير الظواهر

النفسية التي يطبق عليها الامراض العصبية ، فلجأ الى فرض شيء آخر في النفس حتى يزداد التعقيد فيها فيستطيع هو أن يصف الداء ، وجد أن العقل يستطيع ان يغفل الشهوة ويدعها وشأنها ، ثم يسير في شؤونه كأن الشهوة لم توجد اصلاً ، وكأنها لم تطلب شيئاً ، وماذا عليه منها ومن مطالبها من الصواب أن يغفلها كل الاغفال

ولكن لا ، فرويد يريد أن يحل الاشكال في وجود الامراض العصبية وفي معالجتها بالتحليل النفساني ، فاذا كانت جميع نظرياته السالفة لا تكفي لهذا الفرض فعليه الا أن يعمن في فرض النظريات السيكولوجية واحدة تلو الاخرى الى أن يستقيم له وصف الداء والدواء ، لهذا فرض للنفس رقيباً Censor يختبىء في زاوية من زواياها يستطيع أن يستدعيه فرويد فينشط ويجيء نشاطه معداقاً لنظريات فرويد

هذا الرقيب موجود اذن في نفس الانسان ، ولكي تتم النظرية وتستقيم يجب أن لا ينشط الا بناء على اشارة النفس العليا Super Ego تأمره فيفعل ، وتومىء اليه فيتحرك ، ويجب أن يكون نشاطه موجهاً الى الشخصية ، يأمرها أن تنسى ما تطلبهُ الشهوة ويجب أن يكبت الشهوة نفسها كبتاً ويضغطها ضغطاً حتى لا تعود تظهر في النور . وحتى لا تبرح الخفاء ، يجب على هذا الرقيب أن يكتم أنفاس الشهوة ويحرم عليها الظهور في وضح النهار بحال من الاحوال

فصارت النفس عند ما تريد شيئاً تخشى الرقيب وترتعد فرائصها منهُ فتبقيه مكتوماً في خباياها الداخلية مندسّاً في ثناياها ، ويصير العقل الواعي عاجزاً عن أن يحس لها وجوداً على الاطلاق ، وهناك في مداخل النفس الداخلية تفعل الشهوة فعلها وتربك النفس وتقض منها المضاجع وتقلبها على الشوك والقتاد من غير أن تحس الواعية بأن هنالك شيئاً على الاطلاق ، وبأن نفسه الداخلية غير مستريحة الى شيء ، كل هذا يحدث والواعية منهمكة في شؤونها اليومية العادية من الاتصال بالناس وبالاشياء ومن توفير وسائل الطعام والشراب والامور المادية الصرف

وبينما الانسان يسعى لشؤونه المعاشية وبينما عقله منهمك في ترتيب الدنيا التي تحيط بالانسان ، وبينما هو مأخوذ باتقاء الحر والبرد والظواهر الطبيعية والاهتمام بمطالب الجسد المادية ، بينما يحصل كل هذا يكون الرقيب مهموماً بالشهوة يتكفل بكتمها وكبتها ، والانسان بخير مادام هذا هو الحاصل ومادام الرقيب يقظاً ساهراً قائماً بوظيفته خير قيام

ولكن الرقيب ينام ، او يغفل او يغفو ، ولكن الامور تخرج عن طوق الرقيب في بعض الاحيان ، وهنا الطامة الكبرى والداهية العظمى ، لان الواعية لا تشعر الا وهي محوطة بظواهر نفسية غريبة لم تألفها ولم يكن لها بها عهد ، يرى العقل الواعي نفسهُ امام احساسات ومشاعر غريبة عنهُ ليست منهُ وليس هو منها ، او كأنهُ يرى نفسهُ يدير شخصية اخرى غير تلك الشخصية التي كان يديرها ويرعاها ويسهر على رضاها وشؤونها

يحار العقل الواعي في هذا ويشكل عليه الامر فلا يعود مستطيعاً ان يميز هذه الشخصية من غيرها ، يعجز عن ان يعرف هل هذا هو الانسان بعينه الذي كان يخدمه فيما سلف ، ام هو انسان غيره ، هل هذه الميول والاتجاهات الفكرية كانت له من قبل ، ام هي شيء جديد طارىء ، واذا كانت شيئاً جديداً طارئاً فما اصلها وما سببها ؟ ما الدافع لها ؟ وما الغرض منها ؟ ليس هذا فقط ولكنهُ ايضاً يحار في طرق حلها وتسوية تلك المشكلة الجديدة التي هبطت عليه من الجحيم

ترتبك الواعية وتفقد توازنها من هذه الضربة التي انقضت عليها على غرة ، تختلط قيم الاشياء عندها ، وتنقلب معاييرها رأساً على عقب فلا تعود مستطيعة ان تضع الاشياء في مواضعها ، وان تحفظ للانسان مكانته في هذا النظام الاجتماعي الذي يعيش فيه . ولما كانت الواعية هي القوة النفسية التي أنيطت بها الصلة بين الانسان وما يحيط بهِ ، ولما كانت هي دون غيرها التي تتعامل مع الدنيا الخارجية ، فأول ما يختل عنها هو تلك العلاقات بين الانسان والدنيا الخارجية ، تفسد هذه العلاقات فيبدأ الناس يشعرون بالتحول في هذا الانسان ، وان عقله مدخول ، مغاير لعقول الناس ، وان نظرته للاشياء معيبة غير سليمة ، ولو ملكت الناس امورها لاخذوه من يده ووضعوه في مستشفى المجاذيب

ومحصل القول في هذا ان اغفال الرقيب عن تأدية وظيفته كان سبباً في ظهور الخبايا التي كانت النفس العليا Super Ego تصر على ان تكبتها وتداريها من الواعية حتى لا تربك هذه فيما لا طائل تحتهُ وتعجزها عن مقابلة الدنيا الخارجية وجهاً لوجه من غير ان تميد الارض من تحتها ، كانت النفس العليا تود اخفاء هذه المشاعر اولاً لانها لا تتفق والمثل الاعلى الذي تطلبهُ هذه النفس وتود اخفاءها ثانياً لان الواعية تعجز عن تحقيق تلك الرغبات لان الحالة الاجتماعية التي يعيش فيها الفرد تحول دون ذلك

ولا يخفى أن وجود الرقيب وعملها في الواقع اصل الداء والسبب المباشر في الامراض العصبية التي تنتاب الانسان ، لانهُ أولاً يكبت الشهوات والرغبات غير الاجتماعية في الانسان ، أو يكبت منها ما لا يستطيع النظام الاجتماعي ان يسيغهُ ، ولانهُ ثانياً يلقي ستاراً كثيفاً على عيني الواعية حتى لا تعود ترى ما يحيط بها في داخلية النفس ، فكأن وظيفتهُ بعبارة اخرى هي أن يضلل بالواعية ويتغفلها حتى تصبح عاجزة عن مواجهة حقائق النفس ، ومعالجتها بالحكمة والقصد حتى تمر هذه الازمات بسلام من دون ان تثير ما تثيره من المشاكل والصعوبات النفسية

ولسنا متجنين على الفرويدية في هذا الزعم لانها في الواقع لا تسير في علاجها المشاكل النفسية الا عليه ، فهي تزعم أن العلاج لا يكون الا باعانة الواعية على فهم الدوافع النفسية لهذه الخوالج والمشاعر ، ووظيفة الطبيب في التحليل النفساني اعادة التوازن للقوى الواعية حتى تستطيع أن ترى لنفسها اصل الداء ، وظيفته ان يدل العقل الواعي على وجود هذه الرغبات المكبوتة ، ويفهمه انها مشروعة من وجهة النفس البشرية ولا غبار عليها بغض النظر عن العرف والتقاليد الاجتماعية . يعين الطبيب الواعية على ان تواجه هذه الحقائق مواجهة وتفهمها على علاتها وتجيب منها ما تستطيع

اجابته ، وتعترف بشرعية ما تعجز عن تحقيقه منها . وتعترف ايضاً بوجود الازمة ، ثم تسير في شؤونها اليومية وهي شاعرة بأن هنالك في زوايا النفس مطلباً لم يتحقق بعد ، واغلب الظن انهُ لن يتحقق . ولكنهُ موجود على كل حال . ويجدر بالواعية ان تعترف فيما بينها وبين نفسها بوجوده ، ثم تنشط في شؤونها العادية . لقد نجح فرويد — من وجهة نظره فقط — في التعليل عن السبب في وجود العقدة النفسية ولكن لنا سؤالاً واحداً نريد ان نسأله ثم نترك الموضوع عند هذه النقطة وهو هذا :

ماهي هذه الرغبة او الشهوة التي تستطيع ان تقيم الدنيا وتقعدها ؟ ما هي هذه الامنية التي ان لم تتحقق لا يمكن ان يبقى في النفس ركن قائم او حجر على حجر ؟ لماذا كل هذه المبالغة والتهويل في مطالب النفس ؟

اما من جهة المبالغة والتهويل فهما ضروريان جداً في نظام فرويد والا لن تستقيم نظريته ولن يستطيع ان يدل على اصل الداء . اما هذه الشهوة التي تقوم لها النفس وتقعد والتي تستطيع ان تدك كل القوى النفسية دكاً فيقول فرويد انها الغريزة الجنسية

الحق انك تستطيع ان تفسر كل الظواهر الاجتماعية والنفسية من الدين الى الادب الى السياسة الى الجنون الى العقل بالغريزة الجنسية ، ولن يقول فرويد الا انك اصبت الاصابة كلها

زهد الخلفاء الراشدين

لست تقرأ في كتب الادب اجمل مما قيل عن زهد الخلفاء الراشدين : « روي عن ابي بكر الصديق انهُ لما حضرتهُ الوفاة قال لعائشة « انا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم ديناراً ولا درهماً ولكنا قد أكلنا من جريش طعامهم ولبسنا من خشن ثيابهم وليس عندنا من فيء المسلمين الا هذا العبد وهذا البعير وهذه القطيفة . فاذا متُّ فابعثي بالجميع الى عمر . فلما مات بعثتهُ الى عمر . فلما رآهُ بكى حتى سالت دموعهُ الى الارض وجعل يقول رحم الله ابا بكر لقد أتعب من بعدهُ ويكرر ذلك وأمر برفعه . فقال عبد الرحمن بن عوف سبحان الله تسلب عيال ابي بكر عبداً وناضحاً وتحق قطيفة ثمنها خمسة دراهم فلو أمرت بردها عليهم فقال لا والذي بعث محمداً صلى الله عليهِ وسلم لا يكون هذا في ولايتي ولا يخرج ابو بكر منهُ وأتقلدهُ انا »

وقيل ان زوجتهُ اشتهت حلواً فقال ليس لنا ما نشتري بهِ فقالت أنا أستفضل من نفقتك في عدة ايام ما نشتري بهِ . قال افعلي ففعلت ذلك . فاجتمع لها في ايام كثيرة شيء يسير . فلما عرّفتهُ ذلك ليشتري بهِ حلواً اخذهُ فردّهُ الى بيت المال وقال هذا يفضل عن قوتنا وأسقط من نفقتهِ بمقدار ما نقصتْ كل يوم وغرّمهُ لبيت المال من مالك كان لهُ . وكان يحلب للحي أغنامهم . فلما بويع بالخلافة قالت جارية منهم الآن لا يحلب لنا منائح دارنا . فسمعها فقال بلى لعمري لأحلبنها لكم واني لأرجو ان لا يغيّر بي ما دخلت فيهِ . فكان يحلب لهم . ثم تحوّل الى المدينة بعد ستة اشهر من خلافتهِ